

ما أنسى رجلاً كان خير من لقيت من الرجال، وكان يعجبني منه أذبه وفضله وعفته وحيائه وشرف نفسه وطهارة قلبه، تفرغ الخطوب صفاة قلبه، فتردد عنها نابيةً كما ترد الكرة عن الحائط إذا قرعتها. كان فقيراً لا يملك من هذه الدنيا أكثر مما يقيم صلبه، فزوجه أبوه بابنة عمِّ له ذات مالٍ، لم يكُ مثلها في دمامتها وسوء خلقها وجفاء طبعها ممن يطمع في مثله في جمال خلقه ولين حاشيته وانسجام طبعه، لأنه كان برّاً به مطيعاً له، نازلاً عند أمره ونهيه، وعن مجافاة زوجه واطراحها والانتقاض عنها؛ لأنه كريم الأخلاق واسع الصدر، رقيقاً بالضعفاء والمنكوبين، فتزوجها وفي نفسه من الممضض والارتماض ما يلهب الجوانح، ويذيب لفائف القلوب. وأذكر أنني على طول معاشرتي له ولصوقي بنفسه ما سمعته ولا سمعت عنه أنه شكا إلى أحدٍ من الناس ما يواثب قلبه عند النظر إليها، أو إلى ما يدب من عقارب شرها إليه، ثقةً منه بالله ورحمته، وسكوناً إلى ما جرت به الأقلام في ألواح المقادير، فكنت أرحم صمته وسكونه، وأبكي لجمود عينيه عن البكاء؛ لأنني أعلم أن نيران الأحزان لا يسكن اضطرامها، ولا يهدأ اعتلاجها إلا باطراد العبرات وتصاعد الزفرات. وكان كل ما ينعم به من لذائذ هذه الحياة وأنعمها أنه كان يسافر في كل شهر مرةً أو مرتين إلى صديق له في بلد ريفي ناءٍ يقضي فيه يومين أو ثلاثة، ثم يعود وفي ثغره ابتسامَةٌ تتلألأً تتلألأً تلالؤُ نجمة الصبح عند انحدارها إلى الغروب، ولا يلبث أن يعود إلى جموده الأول، لا يحزن فيبكي ولا يفرح فيبتسم، حتى يُخَيَّل للناظر إليه أنه في عالم غير هذا العالم، قضيت في صحبته على حاله تلك بضع سنين أعلم من آلام قلبه ما يحسب أنني أجهله، فأكاتمه ذلك العلم جهدي رفقاً به وإجلالاً وإشفاقاً عليه، حتى زرته في منزله ذات يومٍ فرأيتَه جاثماً في مقعده الذي كان يقعده من غرفته وقد أطرق إطرافاً طويلاً ذهب فيه عن نفسه، فلم يشعر بخفق نعلي حتى أخذت مكاني، فأدهشني من منظره اصفرار وجهه، وما كان يغشى جبينه من دخان تلك النار التي تشتعل بين جوانحه، ثم نظر إليّ نظرةً طويلةً لا عهد لي بمثلها من قبل، ثم قال بصوتٍ خافتٍ مضطرب: «أتعتقد أن الله موجود؟» معالجاً نفسي على كتمان ما كاد يذهب بليبي من تنكر حاله وغبابة أمره. فبسط يده إليّ فعل الضارع المستصرخ، وقال: هل لك أن تحدثني أيها الصديق عن نزول الصواعق، والضلوع التي لا تزال ملتبهة بالآلام والأحزان؟ هل تعتقد أن ذلك كله عدلٌ من الله ورحمة؟ إن الله يمتحن عباده ليعلم الذين صبروا، فيدخر لهم في دار نعيمه من المثوبة والأجر أضعاف ما كانوا يقدرون لأنفسهم من سعادة الحياة وهنائها. قال: «إن الله أكرم من أن يجعل الشر طريقاً إلى الخير، وألا يحسن إلا بعد أن يسلف الإساءة!» قلت: «ذلك ما كتب على نفسه أن يجازي كل عاملٍ بعمله إن خيراً فخير، قال: «إنه قد كتب على نفسه الرحمة. قال: «حدثني إذن عن الولد الصغير الذي لم يخالط نفسه شراً ولم يتسرب إلى قلبه كيدٌ، ما لي أراه مفترشاً حجر أمه، وقد تولى الليل إلا أقله يتقلب على مثل شوك القتاد من الآلام التي تساوره، ويصرخ صرخاتٍ تستمطر المدامع وتحول بين الجنوب ومضاجعها؟! وما لي أرى أمه باكيةً مولهةً مقرحة الجفون، منحلة الشعور موجعة القلب، تفرغ لفرعاته وتصرخ لصرخاته، وقد اختبل عقلها واضطرب أمرها، فأنشأت تقلب وجهها في السماء ضارعةً إلى الله تعالى أن يأخذ بيدها، ويرحم نفسها برحمة ولدها، وبيننا هي تنتظر صوت الإجابة يرن في أفق السماء، إذ بها تسمع حشرجة الموت في صدر ولدها، وإذا به ينزع نزعاً مؤلماً يطير باللب، ويذهب ببقية الصبر حتى تفيض نفسه، فماذا جنى هذا الولد الصغير حتى أصبح لا يستحق رحمة من الله ولا رأفة؟!« قلت: «وما يدريك؟ لعل الله أراد به خيراً فرحمه بالموت المعجل من حياةٍ علم أنه سيلقى فيها — كما تلقى أنت اليوم — عذاباً أليماً وشقاءً ممضاً. ليت الذين يشقون في هذه الحياة يشعرون بصغر هذه الدنيا وحقارة شأنها، ولم يكتب لهم سطرٌ واحد في ألواح المقادير. فهل لك في سفرةٍ معي إلى صديقي الريفي نقضي عنده يوماً واحداً ثم نعود، على أن تكون معي كما كان فتى موسى مع مولاه فلا تسألني عن شيءٍ حتى أحدث لك منه ذكراً؟» وبودِّي لو ملكت الدنيا بحذاقيرها لحظة واحدة لأهبها لمن يكشف لي سر صديقي ويدلني على نكبته التي زعزعت نفسه وصهرت قلبه وملكته عليه لبه وكادت تعبت ببقينه. وما هي إلا ساعات قلائل حتى كنا في المنزل الذي أردناه، ثم خلا الصديق بصديقه خلوةً طويلة لا أعلم ما دار فيها بينهما، فتمت يوماً متقطعاً مملوءاً بالوساوس والهواجس. فما انتصف الليل حتى شعرت أن صديقي يتحرك في فراشه، فتناومت حتى رأيته قد قام من مكانه يختلس الخطى حتى وصل إلى مشجب الملابس، فخفق قلبي خفقة الرعب والفرع، وقلت: «لا بد أن الرجل يريد بنفسه شراً، وإنني أكون الأم صديق إن أنا تركته وشأنه!» فقمتم على أثره أترسم خطواته، وأتتبع مخرجه ومدخله من مدرجةٍ إلى أخرى حتى بلغ ضاحية البلد، ثم استمر في شأنه حتى أطل على مقبرة واسعة قد جثمت قبورها في أرجائها جثوم الآبال في مراتبها، فمشيت على أثره من حيث لا يشعر بمكاني منه، ثم أنشأ يتصفح القبور قبوراً، فخَيَّل لي أنه شبَّح من أشباح الموتى يتنقل في أرجاء تلك المقبرة، فملكني من الخوف والرعب ما كاد يحل عقدة لساني لولا إجلالي هذا الموقف المرهب، وشعوري أنني واقف على أبواب تلك الدور التي سلب خوفها العاقلين عقولهم، وأطار طائر الاغتماض عن أجفانهم، ونغص عليهم ما يتمنون أن ينعموا به من مطاعمهم ومشاربهم،

والتي يفد إليها كل يوم وفود البشر محمولين على أيدي آبائهم وأمهاتهم، ليقدّموهم بأنفسهم هدايا ثمينة إلى الدود، ثم يخلون بينهم وبينه يأكل لحومهم، ويمتص دماءهم، ومباسم ثغورهم مراتع يرتع فيها كما يشاء بلا رقبي ولا حذر من حيث لا يملك مالك عن نفسه دفعا، ولا يعرف إلى نجاة سبيلا. وأنستني الحيرة في أمر نفسي الحيرة في أمر صديقي، فرأيتة جائيا فوق قبر من تلك القبور جثو العابد أمام معبده، اللهم إنك تعلم أنني ما كفرت بنعمتك، وأنتك جازيتني فأحسنت جزائي، فكانت كل ما أفدت من نعيم هذه الحياة وهنائها، ثم لم تلبث أن سلبتنيها وشيكا أشوق ما كنت إليها وإلى قضاء ساعات العمر بجانبها، وكأنما استحالت في نظري حقائق الأشياء، فأصبحت لا أرى في النجمة لألاءها، فهل كانت فتاتي سر هذا الوجود حتى ذهبت فذهب بذهابها كل شيء؟! وجرعتني من كئوس الشقاء جرعا ما احتمل فم قبل فمي مرارتها، لأنها أسدت إليّ صنيعا كانت هي العزاء لي عن هموم الحياة وأحزانها، وحالت تلك الصفائح بيني وبينها، من لي بضربة من ضربات الدهر تذهب بذاكرتي فلا أعود أذكر أيام حياتها ومقعدا بجانبها، وصوتها الرقيق وحديثها العذب، وجيئتها وذهوبها، وحزنها لفراقي وسرورها بلقائي؟! فإني كلما ذكرت ذلك شعرت كأن قلبي المجموع قد استحال إلى أفلاذ صغيرة لا يلوي بعضها على بعض. فلا أمل في البقاء فيها والركون إليها والاستمتاع بلذة الحياة فيها، وأنها الجسر الذي يمر به الأحياء إلى الدار الأخرى، وقد أحسنت إلى كل عبد من عبيدك برفيق يكون عوناً له على قطع تلك الشقة، واختصصتني وحدي بالحرمان من ذلك المعين، فكيف أسير؟ وأين أذهب؟ ومن أين أبتدى؟ وإلى أين أنتهي؟ اللهم إنك سلبتني كل شيء حتى الدموع التي يريح بها الباكون أنفسهم، ويطفئ بها المحزونون لوعات قلوبهم، فأصبح الحزن يغلي بين جوانحي غليان الماء في قدر محكمة الغطاء، فامنن عليّ بدمعة واحدة أبرد بها غليلي، فالدموع هي الرحمة العامة التي كتبت على نفسك أن تعالج بها جراح المنكوبين. ولا اعتراض على قضائك وقدرك، ولا سخط في ابتلاك ومحنتك، ولكنك سلبتني عقلي بعدما سلبتني راحتي وهنائي وفتاتي، وأصبحت لا أعرف لي مذهباً في هذه الأرض ولا مضطرباً. اللهم إنك منعتني حظي من الحياة فلا تمنعني حظي من الموت، فاستردّ إليك عاريتك التي أعرتنيها، فقد عجزت عن احتمالها، وضقت ذرعاً بأمرها، إنك بعبادك رءوف رحيم. وما أتم كلمته هذه حتى سقط على صفائح القبر مكباً على وجهه، فصرخت صرخةً كانت ثانيةً لصرخةٍ أخرى بجانبها، فالتفت فإذا صديقه واقفٌ ورأي، فدوننا منه معاً وحركناه فإذا هو ميت. وبتنا حول سريره نقضي حق صحبته تارةً بالدموع وأخرى بالخشوع، وهنالكَ قص عليّ صديقه قصته، وكشف لي عن ذلك السر الذي كان يكتمه عني، فحدثني أنه قضى زمناً طويلاً يشكو إليّ ما يجد في نفسه من البغضاء لزوجته التي زوجه أبوه منها على الرغم منه، فخفت عليه التلف حزناً وكمداً، فزوجته منذ عشر سنين بأختي سراً من حيث لا يعلم أبوه؛ فكان يزورنا في كل شهر مرة أو مرتين حتى ماتت تلك الأخت رحمة الله عليها وتركت له هذه الفتاة، فما زال يزورها كما كان يزور أمها، فشغف بها شغفاً بلغ به حد الجنون، وكان كثيراً ما يقول لي: «إني أشعر أن حياتنا حياةً واحدة، فحمت الفتاة منذ ستة أيام، فما نشبت أن هصر الموت غصنها النضير، فنعيثها إليه بكتاب أرسلته له، ثم كان بعد ذلك ما قدر الله أن يكون. وألحدته بجانب تلك الصغيرة التي قطع جسر الحياة الطويل في لحظةٍ واحدةٍ شوقاً إليها ووجداً عليها. ثم عدت إلى بلدي صفر اليد من ذلك الإنسان الذي كنت مالئاً منه يدي، والذي كنت أجله وأعظمه حياً، ولا أزال أبكيه وأذكره ميتاً، وأتخذ حياته الشريفة الحافلة بموقف الصبر والجلد والوفاء والكرم درساً أتعلمه، وأعلمه الناس حتى يجمع الله بيني وبينه: كفى حزناً بموتك ثم إني نفضت تراب قبرك من يديا